شاعرٌ حلبيٌّ مجهول

بقلم موجزة للاب لويس شيخو اليسوعي

بقيت في ايامنا دوحة الآداب العربية . فمدّت افنانها على الديار الوطنية . بل قل انها شملت بظلها الوارف كلّ الاصقاع الشرقيّة . وهي كانت في غرّة هذا العصر الشريف . اشبه بنجم ضئيل نحيل . لا يكاد يقوم على ساق . او يُرجى ان يبقى لهُ اثر باقٍ . على انّ بذرها وقع في تربة صالحة فما نشب ان زكا زرعًا . ونما فرعًا . فتعطّرت الالباب بشذا أنواره الزاهية . وتنكّهت العقول بثماره الجنيّة الدانية . فلم تعُد قطوفهُ تفوتُ شبوةَ آكل . ولا يردُ جناهُ يد متناول

ألا انّ في هذه النهضة الادبيّة كان لسورية عمومًا ولحلب خصوصًا يد بيضاء . تستوجب الشكر والثناء . فانّ قومًا من نصارى الشهباء . اذ رأوا منقلب الآداب العربية في هذه الديار . وما صارت اليهِ الدروس من الانحطاط والبوار . اخذتهم الحميّة الوطنية فاجتمعوا من طوائف شتّى وجعلوا يدرسون على ائمّة المسلمين فنون اللغة وآدابها . ويسبرون غورها ويخوضون عُبابها . علّهم يحيون معالمها ويجدّدون شبابها

ومن جملة من اشتهروا في تحقيق هذه الرغائب . وعزّوا لنوالها المناكب . الطيّب الذكر السيّد جرمانوس فرحات مطران حلب وابو المواهب يعقوب بن نعمة الدبسي الماروني والشاعر المطبوع الخوري نيقولا الصائغ والعلّامة الشهير عبد الله زاخر الروميّين الكاثوليكيّين واللغوي الشهير مكرديج الكسيح الارمنيّ الكاثوليكي وغيرهم كثيرون . وكان اليسوعيّون في حلب ينشّطون همهم ويؤلّفون قاويهم ويستّرون زناد قرائحهم فخصّ منهم بالذكر الاب بطرس فرماج الذي تنطق تآليفهُ الباقية بسعة فضلهِ ومداركهِ السامية . فلم تمرّ على هذه الجمعيّة سنون قلائل حتى ولجوا من فنون اللغة كلّ باب . وذلّلوا من مصعباتها الرقاب . وبنوا لها بعد الخراب خُضر القباب

على انّ تآليف كثير من هؤلاء المذكورين مع قرب عهدهم اخذتها يد الضياع فاصبحت اعزّ من الكبريت الاحمر . ومن جملة من تيسّر لنا وجود بعض آثارهم شاعر نبغ بعد اواسط القرن الثامن عشر . اسمهُ ديده كوز (Didacus) بن انطون افرنجيّة . وكان حلبيّ الوطن من الطائفة المارونية . ولعلّ اصلهُ من أسرة بيت افرنجيّة الشهير

بلبنان وقيل انَّ اصلهم يرتقي الى زمن الصليبيين كما يدلُّ على ذلك اسمهم وهم لا يزالون الى يومنا من وجهاء نواحي اهدن. امَّا انتقال قسم من بيت افرنجية الى حلب فقد افادنا عنهُ المعلِّم الاديب الفاضل رشيد افندي الشرتوني فقال انَّ بعضًا من اهالي بشرَّاي وضواحيها انتقلوا الى حلب في ايَّام السلطان الغازي سليم خان الثاني في اواسط القرن السادس عشر فكان من جملتهم بعض بني افرنجية. ومنهم الشاعر الذي نحن بصددهِ

وقد وجدنا لهُ عند بعض اصدقائنا الانكليز في لندرة كتابًا خطيًّا وسمهُ المؤلف «بالمجموع المنتظم من فرائد الكلام» واردعهُ كثيرًا من النُّكت والاخبار والفقرات النثريَّة والمقاطيع الشعريَّة ومن جملتها قصائد وابيات متفرِّقة من نظمهِ ونظم والدهِ انطون وبعض شعراء عصرهِ من نصارى ومسلمين وقد انتهى من تأليف هذا المجموع سنة ١٧٨٠. فقد احببنا ان نورد من نظمهِ فصلًا لتعريف فضلهِ. وهو مع ضعف بعضهِ لا يخلو من اللطف والدِّقة. ويشهد لكتبة ذلك الوقت بتوقد الفهم وذكاء القريحة رغمًا عن قلَّة الوسائط لتحصيل العلوم. فمن ذلك قولهُ يصف مجموعهُ:

مجموعنا هذا لهُ رونقٌ كرونقِ اللؤلؤ في عقدهِ
كادت مجاميع الورى عندهُ تُنسى لديهِ من سنا مجدهِ

وقولهُ معتذرًا عن الاغلاط الواقعة في كتابهِ:

كتبتهُ مجتهدًا وليس يخلو من غلطْ
فقُل لمن يلومني من ذاالذي ما ساء قطْ

وقال في سناءُ:

يا ناظرًا فيما عهدتُ لجمعهِ عذرًا فانَّ اخا الفضيلةِ يعذرُ
علمًا بانَّ المرء لو بلغ المدى في الفضل والعرفانِ فهو مقصِّرُ
فاذا ظفرتَ بزلَّةٍ فافتح لها باب التجاوز فالتجاوز اجدرُ
ومن المُحال بان ترى احدًا حوى كُنه الكمال وذا هو المتعذِّرُ
والنقصُ في نفس الطبيعة كامنٌ فبنو الطبيعة نُقصهم لا يُنكَرُ

ومن تصنيف ابن افرنجيَّة دائرتان رسمنا هنا شكليهما وهما تُقرآن من مركزيهما كما ترى:

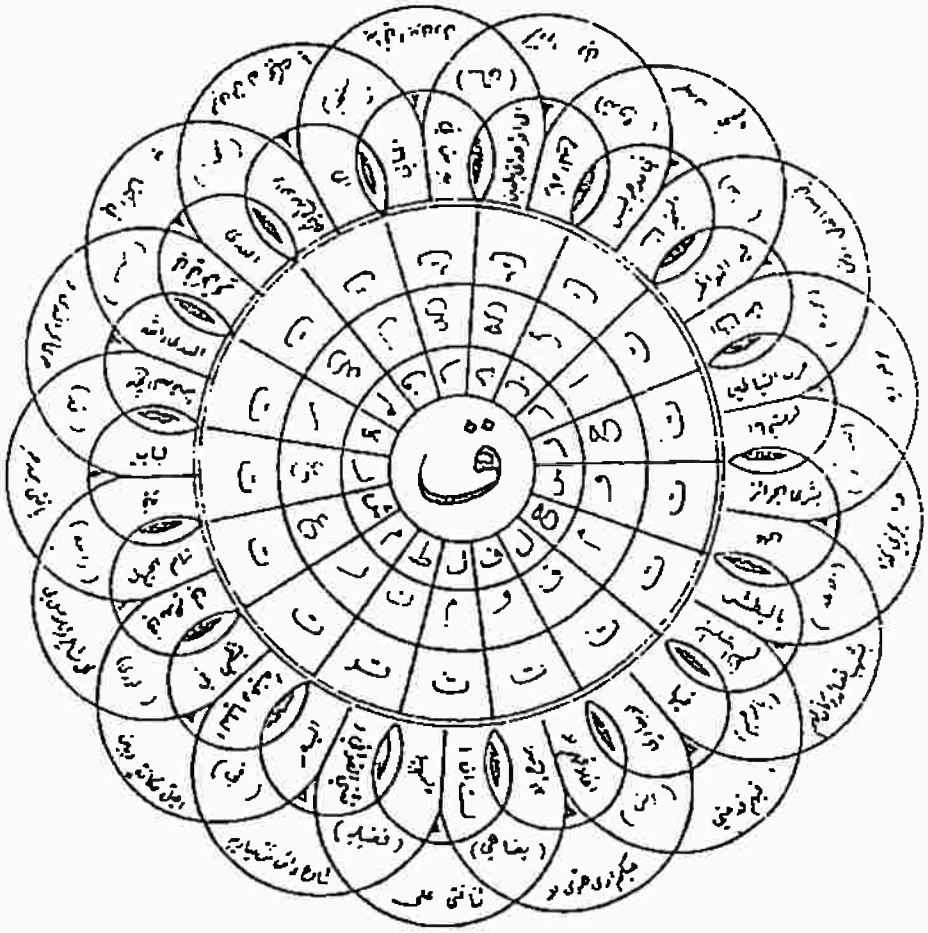

هذه الدائرة عبارة عن قصيدة مدح تتضمّن سبعة عشر بيتاً تبتدئ قراءتها من قوله :

قرعتُ لبابٍ قد حوى البحر الندى واقسمُ لي في كلّ بحرٍ تعلّقُ

وكلّ بيت دويرة صغرى اوّلهُ من مركز الدائرة الكبرى (اي حرف القاف) وينتهي شطرهُ الاوّل في قوس دويرته ثم يعود فيستدير صاعداً الى المركز ويُختم البيت عند المركز (اي بحرف القاف) كما ابتدأ . امّا الالفاظ المطبوعة بالاحمر فهي تُقرأ مرّتين لدخولها في دويرتين مختلفتين

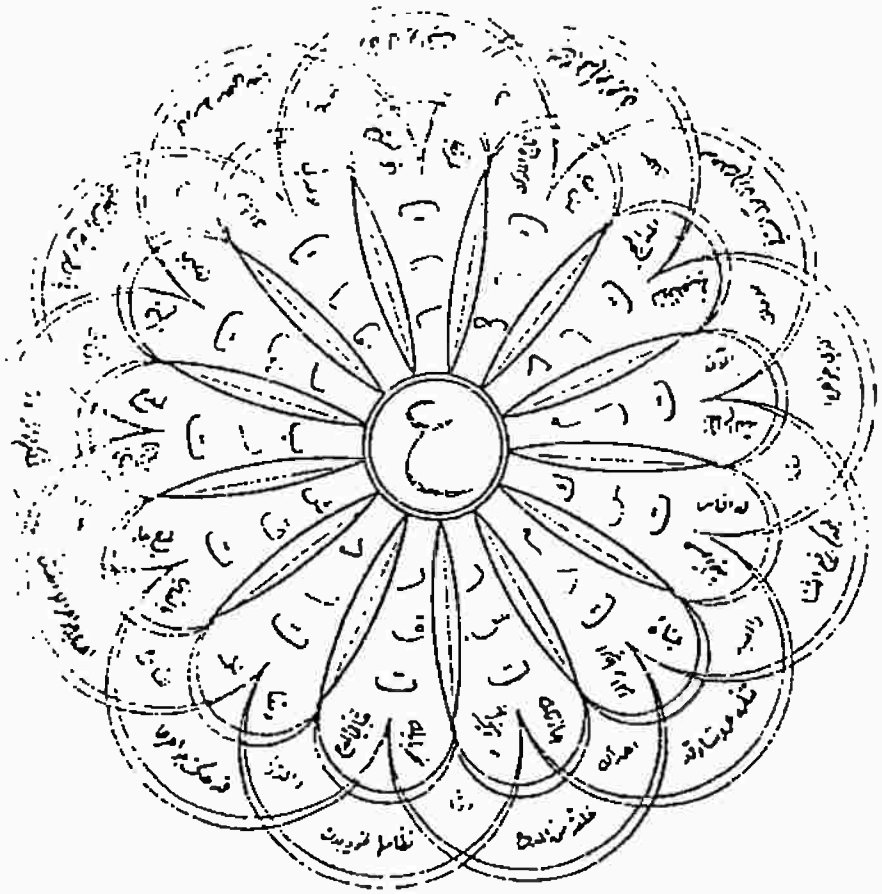

هذه القصيدة الثانية عينيّة تُقرأ كالدائرة الاولى من مركزها وتختم به. الا انّ ابياتها ثلاثة عشر. ويتركّب من الفاظها الحمراء بيتان مستقلّان. واوّل الابيات من قوله:

عبرتُ لمدح التاج في النظم ارتعُ وقلتُ لقلبي انت لا شكّ موجع

ومن شعر صاحب الترجمة قولهُ في وصف النفس :

يا درةً بيضاء لاهوتيةً قد ركبت صدفاً من الناسوتِ
جهل البسيطةُ قدرها لشقائهم وتنافسوا في الدرّ والياقوتِ

وكتب الى صديقٍ :

لمّا اتاني كتابٌ منك مبتسمٌ عن كلّ فضلٍ وجودٍ غير محدودِ
حكت معانيهِ في اثناء اسطرهِ آثارَ البيض في احوالي السودِ

وقال في التغرّب :

لا تكترث بفراق اوطان الصبا فعسى تنالُ بغيرهنّ سعودا
فالدرُّ يُنظَمُ عند فقد مجارهِ بجميلِ اجياد الحسان عقودا

وقال في جار انتقل عنهُ :

تناءت دارهُ عني ولكن خيال جمالهِ في القلب ساكنْ
اذا امتلأ الفؤادُ به فماذا يضرُّ اذا خلت منهُ المساكنْ

وقال في مَنْ عظم امرهُ بعد الهمن :

لا تعجبنَّ بطالبٍ نال العُلى كهلًا وأُخفِض في الزمان الاوّلِ
فالحرُّ تحكم في العقول سنّةً وتُداسُ اوّل عصرها بالأرجلِ

وروى عن ابن الخازي في وصف وادٍ وقيل انها لحميدة الاندلسية :

وقانا لفحةَ الرمضاء وادٍ سقاهُ مضاعفَ الغيث العميمِ
حللنا دوحهُ فحنا علينا حنوَّ المرضعات على الفطيمِ
يصدُّ الشمس انّى واجهتنا فيحجبها ويأمرُ بالنسيمِ
وأرشفنا على ظمإٍ زلالًا أرقَّ من المدامةِ للنديمُ
يروعُ حصاهُ حالية العذارى فتلمسُ جانبَ العقدِ النظيمِ

ومن قولهِ في قهوة الخمّارة تهجو قهوة البنّ :

سمعتُ لسانَ الحالِ من قهوة الطلا تقولُ هلمّوا واسمعوا نصَّ اخباري
فبأسمي تسمّتْ قهوةُ البنّ في الملا ولكنّها لم تحكِ بالفضلِ أخباري
فمن كذبها قد سوّد الله وجهها وعذّبها بعد الاهانة بالنارِ

ولهُ في هجو مغنٍّ :

قد دهاني ما دهاني من ثقيلٍ في الاغاني
قلت اذ غنّى عراقاً ليتني في اصفهانِ

ولابن افرنجيّة تفنّن في الشعر فانّهُ تناول كلّ انواعهِ كالوشحات والزجل وطرق الخماس والبديع . فمن ذلك قولهُ وهو يقرأ طردًا وعكسًا فينتقل من معنى المديح الى الهجو :

عدلوا فما ظلمتْ بهم دولٌ سعدوا فما زلّتْ بهم قدمْ
بذلوا فما شحّت لهم شيمٌ رشدوا فلا زالت لهم نِعَمُ

فان عُكست قراءتها صارت :

قدمٌ بهم زلّت فما سعدوا دُوَلٌ بهم ظلمت فما عدلوا
نِعَمٌ لهم زالت فلا رشدوا شيمٌ لهم شحّت فما بذلوا

ولهُ زجلٌ ضمّنهُ مناظرةً بين الشيخ (التتن) والقهوة . وهو بالشعر العامي اولهُ :

قصّة جرت بين التتن والقهوه وتفاخر الاثنان وزادا برهانْ

وختمها بان حكّم بينهما العرق :

قال العرق نحنْ رفاقٌ جمله في حمتنا نخدم مزاجْ اهل الكيفْ
انت بلاها ما يبان الشّ لذّهْ وانتِ بلاهْ ما تنقليه كانّهْ زيفْ
طاعن بجنسه في المثل قد قالوا في المثال هو طاعن بنفسه يا حيفْ
والصلح في الحالة رئيس الاحكامْ واتما الانسان بحالهْ اخوانْ
فتصالح الاثنان وزالت الاحقادْ وتوافقا كأن المقدّر ما كانْ

الطاعون

رسالة لجناب الدكتور فيليب افندي بركات طبيب المستشفى الافرنسي في بيت لحم

كتب لي وصيف صديق موظّف في احدى ادارات البواخر التي تخالط جدّة عن بعض حوادث الطاعون التي شاهدها فقال ما معرّبه :

ايها الصديق : اليك اخبار لا تسرّك عني لان وظيفتي خطرة اعرّض بها نفسي شأن كلّ الاطباء للموت العاجل وها الطاعون قد وفد علينا في هذه الجهات فأرعدت فرائصي غير اني تجلّدت للبلاء ودونك خبر ما شاهدت عيانًا هذه المدّة :

بينما كنت في قهوة اتزّه الخاطر من عناء الاشغال المتواصلة اذ سمعت أعرابيًا بجانبي يقول (مسكين يا حكيم اصاب فلان الطاعون تعالَ اليه) واشار بيده الى الرجل فالتفت يمنة واذا بشاب بالغ من العمر نحو العشرين سنةً فقربتُ منهُ سائلًا : ما تشكو ايها الشاب قال : الصداع والأوار واحسّ بنار تحرق احشائي . وكان وجه الفتى مصفرًا وحدقتا عينيه متّسعتين . ولمّا لم يكن لديّ غير الماء بلّلت منديلي ووضعتهُ على رأسه وصرتُ